

الاجواء الشعرية في مكة قبل الاسلام (The poetic Atmosphere in pre-Islamic Mecca)

Dr. Imrana Shahzadi

Assistant Professor of Arabic GC Women University, Faisalabad

Maryam Siddiqi

Lecturer in Arabic GC Women University, Faisalabad

Abstract

Pre-Islamic poetry is deliberately a criterion for the correctness and eloquence of the language, supporting the language of the Quran and its meanings, and most of this poetry was attributed to the poets of the desert. This article deals with the poetic atmosphere in pre-Islamic Mecca and sheds light on the key features of the poetry of great Meccan poets. It finds that Arabic poetry is closely allied to the history and culture of its people, the tedium of peregrine life, rising of Islam, self-creation of the deepest senses of the Arabs, self-identity, the interaction and cross fertilization with others civilization, etc. Through this study we can see the manifestations of pre-Islamic life in all its aspects and all the news and narratives that appear in the Arab thought at that time.

Keywords: Poetry, Arab, Mecca, Pre-Islamic

مقدمه

لا شك فيه ان الشعر الجاهلي عمداً معياراً لصحة اللغة وفصاحتها، داعماً للغة القرآن ومعانيه، وكان معظم هذا الشعر منسوباً الى شعراء الصحراء فما كان هؤلاء الشعراء يتكلمون لغة بدوية لانهم لا ينظمون لانفسهم، وينظمون يُسمع نظمهم ويؤدى دوراً في فخر او مجاء او مدح او حتى في مرسله غزلية وقد يدخل في منافسه على جائزة معنوية كالتعليق في الكعبة او لتسير به الركبان فوق كئبان



الرمال، وبين القبائل والمنازل والحوافير، فلو كان هذا الشعر ينظم بلغة بدوية تنحصر في لهجة قبيلة من القبائل دون اخرى لما ادى دوره المقصود، وسنرى ان اللغة التي صيغ بها معظم الشعر الجاهلي هي اللغة التي اصطنعتها قريش وتحدثت بها بين القبائل، فغدت اللغة التواصل بين اللهجات البدوية وغير البدوية، ولهذا السبب نزل بها القرآن- واذا كانت لهجة قريش لغة الشعر الجاهلي البدوي، فهي اصلاً لغة شعراء مكة، ولن نجد فارقاً كبيراً بين الشعر البدوي وشعر مكة، على صعيد اللغة لفظاً ومعنى، ونرى الاختلاف النظري بين الفريقين في الامرين هما: الطبيعة والذوق وايضاً يحتاج الامر الفحص بالتفصيل فهل كان هؤلاء الشعراء جزءاً من شعراء الجاهلية ام انهم كانوا نسيج وحدهم- تتميزوا من الآخرين، نحن ندرس الحياة قبل الاسلام في مكة من جانب حضارى، وتصوير البيئة التي شكلت مهد الديانة الجديدة ورعت نشاتها وهذا الجانب المهم اهمل المورخون تاريخ حياة شعراء مكة وجمع انتاجهم الشعرى وبسبب هذا نحن نتصور ان قريش، ومكة بصورة عامة لم تقض حياة ادبية التي عرفتھا البادية وايضاً نحن نظن ان معظم مكة قبل الاسلام هو شعر شرك وكفر وشعراء قريش كانوا مع قريش ابان الدعوة، على الدين الجديد في حملة مسعورة بهاجمون محمداً والمسلمين- وندرس ان من امن من الشعراء القريشيين، ومدح الاسلام والنبي حفظه له شعره فيما اهمل غيره ان الدين الاسلامي نزل بمكة، وعلى محمد صلى الله عليه واله وسلم ومكة كانت موطن قريش، او فرع من قريش وقليلون من سكنوها من قبائل، ان معظم الشعراء المكيين هم اذاً قريشيون، شكلوا مكة عالمهم وافقهم وانتمائهم العائلي، ومجال اهتمامهم وكانت تلك الجميع لهم مركز النشاط التجارى ومع ان الحجاج من كل ناحية كانوا ياتون داخل مكة وهم عادة يتلاقون ويتبادلون ويتفاعلون في الاسواق وخارجها وتتجلى هنا ان شعراء مكة الكبار نظموا قصائدهم في احداث مرت بها مكة الكبار نظموا قصائدهم هذه القصائد هو ما قيل في معارضة الدعوة الاسلامية في بدء ظهورها، او في امتداحها والدفاع عنها قبلاً وبعداً- هذا ما حفظه المسلمون واراد الشعراء انفسهم ان يذكروا به-¹ فنجد في اخبار مكة ان الشعر لا يقوله الكبار والصغار من قريش وحدهم بل يقوله جميع ما يذكر في تاريخها من قبائل خزيمه وجهم وصولاً الى اسماعيل عليه السلام - ان الحديث عن اجواء شعرية في مكة قبل الاسلام هو في الوقت نفسه، حديث عن ملامح الحياة الاجتماعية والثقافية وفي الاقتصادية فضلاً عن العسكرية في مكة- ان مكة على رغم تميزها الديني والاقتصادي، لم تكن جزيرة معزولة، لقد كان لقريش ظهور مديني في بطاح مكة، وظهور شبه بدوي في ظواهر مكة، كما كان لقريش حُلَقَاء وعُمَلَاء من قبائل بدوية واكتسب المكيون احياناً عداوات من قبائل اخرى كل هذا الاختلاط ولّد شعراً فاذا كان الشعر واقعاً والتزاماً وتسجيلاً لموقف او حدث فان الشعر الذي عرضته مكة كان

¹ جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الامم والملوك، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم (بيروت: ب ت)، 1: 232.

خليطاً من كل هذا اما الكيان الاجتماعى والدينى لدى قريش فقد بقى كامناً على ما هو عليه طيلة فترة زمنية حتى جاء الاسلام بدعوة المحمدية فظهر التدهور الاجتماعى والسياسى فى مكة.²

اما قريش فقد اسس سلطتها فى مكة قصى كلاب وكان اول من اقام حول مكة مسكناً او مقاما ، ولقد اكتسبت مكة اهميتها الدينية والاجتماعية حيث كانت بقية الحجاج ومطلب التجار وايضاً نلاحظ ان التالف القبلى كان ملفتاً للنظر، و التضامن الاجتماعى والسياسى والانتماء كان كبيراً فى العصر الجاهلى حيث كانت القبيلة كالجسد الواحد- عدم وجود حكومة مركزية ينتظم احوال هذه القبائل ، فالعادات والتقاليد الاجتماعية التى سادت الحياة فى المجتمع المكي تجعل من الحياة الاجتماعية بعيدة الاثر فى التنظيم الحياتى فازدهرت الحالة المالية والاقتصادية حتى اصبحت مكة مؤناً للتجار والثقافات وهذا يجعلها تنبوا مكانة تاريخية يتمكن الناس فيها من تملك القدرات المالية والمصرفية - فولد التعاون والتنافس بين قريش وغيرها من القبائل ، وكان لعمال دورهم فى الحياة الاجتماعية - وبسبب ذلك تدور المعارك مثل حرب الفجار التى كان سببها العصبية والنفوذ وجب السطو والقرصنة بين عروه بن عتبة بن كلاب والبراص مما ادى الى حرب ضراس بين القبائل -

لقد كانت الديانات سبب الكشف عن الاجانب الاكبر من حياة الامم القديمة لها اهمية لدى افرادها اذ كانت حياتها تقوم على الناحية الروحية والعرب الجاهليون قد عرفوا ديانات عدة ان كثيرين منهم ملأ م فراغتهم الروحي بالايمان بالآلهة الاوثان والاصنام فضلاً عن ايمانهم بالله ، ولما كان الشعر ديوانهم ومراً حياتهم فقد عبروا فيه عن ذلك الايمان كما عبروا عنه من النثر الفنى ، استطاعت ان تنفذ الينا من الضياع والنسيان.³

ان المكانة الاجتماعية والسياسية والدينية - فى العصر الجاهلى - كانت على اتمها فى قريش ، حيث كان القريشيون يقدمون كل التسهيلات من سقاية ورفادة للحجاج واطعام للناس فى مكة وغيرها - ولقد حافظت قريش على مكانة مكة عدة قرون لذلك مثلت فى وضعيتها هذه منارة للجزيرة العربية يؤمها الناس لاغراضهم المتعددة ، ساعد على ذلك تفهم القريشين لمهماتهم المختلفة وتقاسمهم هذه المهمات و مساعدة بعضهم بعضاً ، كل ذلك ساعد لتغذوا مكة مركزاً تجارياً وحضارياً ودينياً ، فعلى الصعيد الدينى، ظهر فيها رجالات ذووا افكار هامة فى معرفة الله سبحانه وتعالى - حرصوا على الدين الحنيف كان معروفاً قبل الاسلام ، وعلى الصعيد الاقتصادى، فقد احتلت مكة مركزاً تجارياً هاماً تمر بها القوافل ذهاباً واياباً وهذا الوضع جعلها ثرية، وعلى الصعيد الاجتماعى فلقد كان للعرب اسواق تجارية يجتمعون فيها لتبادل السلع والآراء - وهذه اللقاءات التجارية والاقتصادية لا بد لها من اقامة

² د عز الدين ابى الحسن على، الكامل فى التاريخ ابن الاثير (بيروت: دارصادر، 1400هـ)، 1: 5 -

³ الدكتور عبد الغنى زيتونى، الوثنية فى الادب الجاهلى (صادر بيروت: دارصادر، 1400هـ)، 8 -

علاقات اجتماعية وادبية ومن هذا كله يمكن ان نقول انّ مكة كانت اهم مدينة في شبه الجزيرة العربية وكان مجتمعها يتألف من قريش البطاح الذين ينزلون حول الكعبة وهم : هاشم وامية ومخزوم ويتم وعدى وجُمَحَ وسَهَمَ واسد ونوفل وزمرة وكانوا الاصحاب النفوذ بها - الحديث عن شعراء مكة قبل الاسلام وشعرهم يستدعى بالضرورة الحديث عن اللغة التي صاغ فيها هؤلاء الشعراء شعرهم، فالمعروف ان الادب الجاهلي - وخاصة الشعر - جاء كله بلغة واحدة وصاغة بهذه اللغة الواحدة جميع الذين نسب اليهم انهم قالوا الشعر من الشعراء شماليهم وجنوبيهم- والشئ الاكيد هو ان مكة لم تبرز في الشعر قبل الاسلام بين القرى العربية اذ كان خطها من الشعر ضئيلاً خاملاً ، فالشعر البارزون من مكة انما برغ نجمهم ، وذاع امرهم في الاسلام ابان العرب بين مكة ومدينة لا سيما بعد الاحداث الدامية في غزوتي بدر واحد -

اما في الجاهلية ، فصحيح ان ابا سفيان بن الحارث كان له شعر ، الا انه ضاع ، ولم يحفظ لنا الرواة الا القليل منه ، يقول ابن سلام : ولا بى سفيان بن الحارث شعر كان يقوله في الجاهلية ، فسقط ، ولم يصل اليها منه الا القليل منه.⁴ "اسماء شعراء آخرين في مكة منهم الزبير بن عبدالمطلب ، الذي بقى من شعره الشئ القليل واجمع الناس على ان الزبير بن المطلب شاعر والحاصل من شعره قليل" كذلك كان حظ اكثر شعراء مكة الذين وردت اسماء هم في شعراء الجاهلية ، مثل ابي طالب الذي يروى له شعراً يمكن ان يطمان اليه ذكرهما ابن هشام ثم يشك فيها.⁵

وقد يكون السبب في فحول شعر مكة وقلته ، هو ماذهب اليه ابن سلام ، انما يكثر بالحروب التي تقوم بين الاحياء فهو حرب الاوس والخزرج ، او يتفشى الغارة بينهم ، فيغار عليهم ويغيرون⁶ ويبدو ان انشغال قريش بخدمة بيت الله من جهة وبالتجارة من جهة اخرى ، شغل وقتهم فلم يجدوا ما يمكنهم من القيام بامور الجيش والحرب انهم لذلك يستاجروا حبذا من افريقية ، ومن الاحباش ليقوموا مجراستهم.⁷ واما الشعراء الذين برزوا في عهد الدعوة فهم : عبدالله الزبيري ، وضرار بن الخطاب ، وابو سفيان الحارث ومبيرة بن ابي وهب ومولاء هم شعراء مكة البارزون اما كثرة شعرهم فقد ضاعت بسبب الاحداث السياسية والدينية ، فالاسلام بما هو دعوة دينية جديدة لقي عداً شديداً ونضالاً عنيفاً من مشركي مكة اولا ومشركي جزيرة بعدما وايضاً ابن سلام يعي هذه النقطة

⁴ محمد بن سلام الجمعي، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر (القاهرة: مطبعة المدنى ، 1984م)، 245.

⁵ عبدالملك بن هشام ، السيرة النبوية، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها مصطفى السقا، ابراهيم اليباى،

(بيروت :طبقة دارالكنوز الادبية، ب ت)، 206:1.

⁶ الجمعي ،طبقات فحول الشعراء، 244:1.

⁷ شعر عبدالله بن الزبيري، تحقيق- يحيى الجبورى (بيروت: مؤسسة الرسالة ، 1401هـ/1986م)، 21.

حين كان يتذكر هذه الأحداث وينظر إليها نظرة ثاقبة⁸ "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اصح منه فجاء الاسلام ، فشأغلت عند العرب ، وتشأغلوا بالجهاد وغزو وفارس والروم ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمانت العرب بالاعصار ، راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، والفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا اقل ذلك وذهب عليهم كثير"⁹ ان اغلب الشعر المكي قيل الدعوة و خلالها ، كان شعرا في هجاء الرسول ودعوته واصحابه وينتصر الدين الجديد فيختفى الشعر المكي خوفاً من جهة اخرى - واذا تيسر شعراء الانصار ان يدونوا شعرهم ، وهو في نصرة الدين - فما كان لشعراء قريش ان يخذوا حذوهم - اضافة الى ذلك فجمهور المسلمين كان لا يرضهم حفظ شعر فيه تعريض برسول الله واصحابه ، حتى الرواة ايضاً وجدوا حرفاً في رواية هذا الشعر كله او بعضه - اضافة الى ان بعض الذي وصل من شعر قريش لا يمكن الاطمئنان لصحته -

الخصائص المعنوية للشعر الجاهلي

ويقول شوقي ضيف عن الخصائص المعنوية للشعر الجاهلي " لعل اول ما يلاحظ على معاني الشعر الجاهلي انها معان واضحة بسيطة ليس فيها تكلف وبعد. ولا اغراق في الخيال ---" فهو لا يعرف الغلو ولا المغالاة ولا المبالغة ---⁹ وايضاً يقول شوقي ضيف في الخصائص اللفظية عن الشعر الجاهلي --- انه كامل الصياغة ، فالتركيب تامة ولها دائما رصيد من المدلولات تعبر عنه ، فقد سبقته تجارب طويلة في تمصون العصور الماضية قبل هذا العصر ، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى اخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه السورة الجاهلية التامة : فالالفاظ توضع في مكانها والعبارات تؤدي معانيها بدون اضطراب.¹⁰

جواء الصراعات بمكة في الجاهلية

الان نحن نطالع جواء الصراعات بمكة في الجاهلية، تمت فيها الصراعات الدينية الاجتماعية والعصبية وكثرت الشرور والمفاسد ، مما جعل الاسلام ضرورة لاصلاح ذلك كله الفترة الجاهلية اذن كانت مقدمة مهمة حافلة - والناظر في تاريخ العرب يرى بوضوح الى اي درجة تعمقت العصبية في نفوس العرب فحرب الاسلام على الشعر الجاهلي ولا سيما شعر المكيين قبل الاسلام ، وحتى في فترة الدعوة حيث كان شعرا غزيراً جريئاً لم يترك الا بعضه الذي يخبر عنه. ان الشعراء الذين عرفوا قبل الاسلام ولهم دواوين يمكن الوصول اليها هم شعراء مخضرمون وبعد دخول الاسلام كان التوبة ،

⁸ الجمعي ،طبقات فحول الشعراء، 1: 245-

⁹ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، 2: 48-

¹⁰ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، 2: 219-

والاحساس والخيال والحرص مما سبق موضوع اساس في شعرهم - نحن نجد في الجو المكي الصراع العصبى عماد التنظيم القبلى الجاهلى، فالعصبية تربط ابناء ما : الفرد للقبيلة والقبيلة للفرد ، هكذا يكتسب الفرد حصانة تكبر بكبر القبيلة و بكثرة شأنها و ابطالها ، والعرب قبائلهم يفتخرون بالقوة والامجاد فالفخر شعرا بالذات ، عرفنا ان قريش كانت قبيلة عربية كسائر القبائل وانها عرفت صراعات مع قبائل اخرى ولكن قريشا لم تعرف دائما حياة القبيلة المحاربة لم تقم بغزوات لتسلب القبائل الاخرى ولم ياتها الغزو وكذلك الا نادراً والسبب هو ان قريشا عرفت حياة التاجر من جهة ، ومن جهة ثانية عرفت قريش في مكة ومكة بلد الكعبة ويعظمها جميع العرب ، يستقبلون الحجيج ، يسقون ، يطعمون ويغدقون بصورة نادرة المثال - لهذا كانت قريش تستطيع ان تفتخر كسائر العرب وتفتخر اكثر بامجاد دينية واجتماعية معنوية تفردت بها الصراع العصبى-

صراع العصبيات

في باب صراع العصبيات قد نقل ابن هشام في كتابه الواقعه الطريفة التى تدل على العصبية القريشية ، كان عوف احد ابناء لوى بن غالب بن فهر واخا كعب الذى كان من سلالته مرة فكلاب فقصى، وفيما كان عوف في ارض غطفان مع قومه ، سار القوم وتركوه - فاتاه ثعلبة ابن سعد الغطفانى ، من بنى ذبيان فضمه اليه وزوجة واخاه ملحقا اياه بنفسه فغدا عوف بن سعد بن ذبيان ويقول ثعلبه في ذلك :

أَحْسُ على ابن لؤى جملك تركك القوم ولا منزل لك ¹¹

وهكذا التحقق ابناء عوف، من ولده مرة، بنى ذبيان فكانوا اذا ذكر لم نسبهم القديم ونسبهم الجديد ، قالوا عن هذا الاخير "ما ننكره وما نجحره وانه لأحبُّ النسب الينا " ¹² وهنا ايضا الواقعة الاخرى يشير اليه ابن هشام في كتابه هو حين هرب حارث بن ظالم بن جذيمة من نعمان بن منذر والتجأ الى قريش فامنه راحة القريشى وحماه وتخلت ذبيان عن نصرته ، لهذا نجد الحارث انما يعرض بذبيان مستشيراً عصبية قريش قائلاً :

ولا بغزارة الشعر الرقاباً	فما قومي بثعلبة بن سعد
بمكة علّموا مَضَرَ الضرابا	وقومي ان سَأَلْتُ بنو لُؤى
وترك الاقربين انتساباً	سَقِهنا باتباع بنى بغيض
هراق الماء وأتبع السرابا	سفاهمة مخلف لما تروى

¹¹ ابن هشام، السيرة النبوية، 1: 82-

¹² ابن هشام، السيرة النبوية، 1: 83-

وتتجلى العصبية القريشية في ابلغ مظاهرها حين يندم الحصين على ما قال ويتمنى لو ان لسانه قد مُشق نصفين قيل ان يقول ما قال - وتتحرك في دمه عصبية النسب الحقيقي فيدعى الانتماء الى قريش الى لؤى ، الاب الذي يرقد في بطحاء مكة كما يدعى ارثا معنوية في البيت الحرام:

ندمت على قول مضى كنت قلت
فليت لسانى كان نصفين : منهم
بِئْسَ فِيهِ أَنَّهُ قَوْلُ كَاذِبٍ
ابونا كَتَانَى بِمَكَّةَ قَبْرِهِ
بَكْمٌ وَنَصَفٌ هَجَرَى الْكَوَاكِبِ
لَنَا الرُّبْعُ مِنْ بَيْتِ الْحَرَامِ وَرَاثَةُ
بِمَعْتَلَجِ الْبَطْحَاءِ بَيْنَ الْأَخَاشِبِ
وَرُبْعُ الْبَطَاحِ عِنْدَ دَارِ ابْنِ حَاطِبٍ¹³

الصراعات السيادية

السيادة في مكة هى سيادة على المدينة واهلها والقاصدين اليها وسيادة على الكعبة ، او المهمات التى ترتبط بها كمؤسسة دينية وبطقوسها-مكة ليست بلداً زراعياً فقد كانت تجارة كبرى ومن طبيعة التجارة ان توصل البضائع الى ما يحتاجها وفي مكة شبه دولة : الحقوق المحترمة ، والاعتدأ على حقوق الآخرين مرفوض ، واذا اتم الاعتداء لا يكون سكوت عنه بل يوجد دائما من يدعو الى وقف الظلم ومنع العدوان لكن منع العدوان يحتاج الى من يضمه الى من ينفذه لذا عقد القريشون حلقا على رد المظالم وانصاف المظلوم مثل هناك القصة الشهيرة للتميمى الذى قدم مكة بتجارة اشترها منه رجل من سهم هو العاص بن رائل فلوى بحقه فاعاد طلبة فامتنع عليه خفام على الحجر وانشد:

يال قصي المظلوم يصنّاعته
واشعت مُحْرَمٌ لَمْ تُقْضَ حُرْمَتُهُ
بِطْنِ مَكَّةَ تَاتَى الدَّارِ
اقائم من بنى سهم بذمتهم
بين القوم وبين الحجر والنظر
المتمق في اخبار قريش
او ذاهب في والحجر
ضلال مَالٌ مُعْمَرٌ¹⁴
وتتكرر القصة مع قيس بن شيبه السلى الذى انكر أبى بن خلف عليه ثمن متاع باعه اياه ، فاستجار برجل من بنى جمح فلم يجره فقال :

يال قَصِيّ كَيْفَ هَذَا فِي الْحَرَمِ
اظْلَمَ وَمَنْ لَا يَمْنَعُ عَنِ الظُّلْمِ
فِي حُرْمَةِ الْبَيْتِ وَاخْلَافِ الْكُرْمِ
إِنْ كَانَ جَارَكَ لَمْ تَنْفَعَكَ ذِمَّتُهُ
فَاجَابَةَ الْعَبَّاسِ بْنِ مَرْدَاسٍ :
وَقَدْ شَرِبْتَ بِكَاسِ الدُّلِّ انْفَاسَا
فَاتِ الْبَيْوتِ وَلَنْ مِنْ أَهْلِهَا صَدْدًا
لَا تَلْقُ تَادِيْبَهُمْ فَحْشًا وَلَا بَاسًا¹⁵ --

¹³ ابن هشام، السيرة النبوية، 1: 88.

¹⁴ ابن حجر العسقلاني المصري، الاصابة في تمييز الصحابة (بيروت: دار الكتب العلمية، ب ت)، 5: 277.

¹⁵ محمد بن حبيب البغدادي، المنق في اخبار العرب، تحقيق- خورشيد احمد فاروق (بيروت: عالم الكتب، 1985م)، 142.

فقال سفيان بن عبدالمطلب فرد عليه ماله واجتمعت بطون قريش في دار عبدالله بن جدعان فكان حلف الفضول- فقال بعض في هذا الحديث :

تيم بن مرة ان سالت وماشما وزهرة الخير في دارين جدعان

متى السيف على الندى ، ما غزرت ورقاء في فنن ، من جذع كتمان¹⁶

وسدانة الكعبة ايضاً كانت سبب الفخر لبني خزاعة بانها انتزعت السدانة من جرهم ابعدتها من مكة يقول ابو المطهر اسماعيل بن رافع الانصارى يشير الى هذا الصراع :

فلما هبطنا بطن مكة اُحمدت خُزاعة دار الاكل المتخامل

فحلّت اكاريسا ، وشتت قنابلا على كل حى ، بين تجد وساحل

تَقَوْا جرهماً عن بطن مكة واحبتوا بعز خزاعي شديد الكواهل

الاجازة بالحجج من عرفه ايضاً كان سبب الافتخار عند المكيين - كان الغوث بن مَرّ المضرى يلى الاجازة للناس بالحج من عرفة ، وورث ولده ذلك وكان يقال لهم صوفة - وغوث نذر ليكون خادماً للكعبة نذرته امه التى لم تكن تنجب بانها ان انجبت تتصدق بولدها على الكعبة عبداً لها - ويقول الغوث بن مَرّ في ذلك عن لسان امه:

انى جعلت رب : من بثنية رِبْطَة بمكة العلية

فباركن لى بها اليه واجعله لى من صالح البرية¹⁷

وكانت قبيلة صوفة تدفع بالناس من عرفه وتجزئهم اذا نفرط من بينى فاذا اتوا الرمي الجمار لا يرى احد حتى يرمى صوفة ، فلا يجوز احد حتى تمر جماعة صوفة والناس تقول : اجيزى صوفة ، وحين انقرض آل صوفة وليت مكانهم سعد بن آل صفوان من تميم وفيهم قال اوس بن تميم لا يبرح الناس ، ما حجوا ، معرفهم حتى يقال : اجيزى ال صفوانا اما الاقامته من المزدلفة فكانت في عدوان ، يقول ذو الاصبع العدوانى في ذلك :

ومنهم كانت السادا ت والمؤفون بانقرض

ومنهم من يجيز النا س بالسنة والقرض

ومنهم حَكَم يقضى فلا يُنْقَض ما يَقْضَى

صراعات سياسية

صراعات سياسية ايضاً يوجد بين قبائل مكة وهناك امثلة عديدة ومنها :

¹⁶ محمود شكرى، بلوغ الارب، 1: 287.

¹⁷ ابن هشام، السيرة النبوية: 1: 99.

وكان لقصى اخ من امه هوزاح بن ربيعة ، استنجد به في معركة تاسيس ملكه - فلما فرغ قصي من حربه ، انصرف اخوه رزاح الى بلاده بمن معه من ربيعة وقال في ما جرى قصيدة طويلة تختار منها -

لَمَّا أَتَى مِنْ قُصَيِّ رَسُولٍ
نَهَضَا إِلَيْهِ نَقُودَ الْجِيَادِ
فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى مَكَّةِ
نُعَاوِرُهُمْ ثُمَّ حَدَا السُّيُوفِ
فَقَالَ الرَّسُولُ أَجِيبُوا الْخَلِيلَا
وَنَطْرَحْ عَنَّا الْمَكُولَ الثَّقِيلَا
أَيْحَنَّا الرِّجَالَ قَبِيلَا قَبِيلَا
وَفِي كُلِّ أُوْبٍ خَلَسْنَا الْعُقُولَا¹⁸

الصراع الاقتصادي

الصراع الاقتصادي ايضاً الجوّ الشعري مكّه مثل حرب الفجار، كانت قريش جاعة تجارية بامتياز، فهي بدات وسيطا تجاريا تومن ايصال البضائع من طرف الجزيرة الجنوى الى مكة و ومن مكّه إلى الطرف الشمالى و بلاد الشام والعكس صحيح- ثم انتهت بان غدت مؤسسة تجارية نستورد البضائع و تنقلها في الطريق نفسه، وأهم مايؤمن ازدهار التجارة هو الاستقرار والأمان وقد حرصت قريش على توفيرها باسلوبين، ان سلوب الأذل هو تدعيم فكرة الحرم الذى تؤمنه مكّه- والحرم يعينى الامان لمن يدحل، على بابهِ تترك الثارات والاغتيارات و اعمال الشغب وقد نجحت في ترسيخ هذا المبدأ وأفادت منه امانا لزعمائها عند ما الحققتهم جماعة في حرب الفجار الثانية فاصبحوا آمنين لمجرد دخولهم الحرم- والسبيل الثانى هو تامين الطرق المؤدية إلى الاحلاف تارة و اصطناع الحماة- من رجال القبائل تارة، فوفرت لتجارها الطرق الآمنة- وإذا كانت قريش ترخّب بجميع القوافل التجارية، ثانى إلى اسواق مكة و تسعى إلى ضمان أمنها وسلامتها في ديارها على الأقل وقد يكون السلاح وسيلة والاغتياء سببا لا ندلاع حروب، فالثار للمغدور تسال مته قبيلة، باسرما، وهذا وضع حرب الفجار في شقها المهم: وحرب الفجار هي الحرب الوحيدة التى خاضت قريش غمارها- وفرضت على قريش لم تهى لها، ولم تحتط لمثلها، ومع ذلك لم تسمح قريش لهذه الحرب ان تطول، ثم تدعو إلى الصلح، وانتهت الحرب- وكل حرب جاهلية، كان في الفجار كزوفرّو كان فيها قتلى من الجانبين و كان فيها، كماقلنا، شعري فخر، يتحدى ويترفع اويهبجو ويخزي، كما كان فيها رثاء وتفجع--- من شعر الحرب القريشى ماقاله، ضارر بن الخطّاب الفهري:

وَجَنْنَا إِلَيْهِمْ عَلَى الْمَضْمَرَاتِ
فَلَمَّا التَقِينَا أَذْنَاهُمْ
فَفَرَّتْ سُلَيْمٌ وَلَمْ يَعْبُرُوا
وَفَرَّتْ ثَقِيفٌ إِلَى لَاتِهَا
بَارَ عَنْ ذِي لَجَبٍ زَاخِرٍ
طُعَانًا بِسُمْرٍ الْقَنَا الْعَاتِرِ
وَطَارَتْ شُعَاعًا يَنُوعَامِرِ
لَمُنْقَلَبِ الْخَائِبِ الْخَاسِرِ
رَثَمَ، تَوَلَّتْ مَعَ الصَّادِرِ
وَقَاتَلَتْ الْعَنْسُ شَطْرَ النَّهَا

¹⁸ ابن هشام، السيرة النبوية: 100:1

الرثا

والرثا موضوع مهم عند الشعراء في مكة والرثاء ما تجلى في شعر نساء غير معدودات في الشعراء، ولكنهن من هذه النخبة التي اشرنا اليها، نخبة من الشعراء في كموت الموهبة، تكفى مناسبة معاناة لتفجير الموهبة هكذا راحت اميمة بنت عبد شمس ترثي اخاها ابا سفيان بن امية في قصيدة مميزة انثربولوجيا اذ تبين وضع المرأة في ذلك المجتمع، على تطوره وتمدنه، بالنسبة الى سائر المجتمع الجاهلي،¹⁹ وكذلك راحت فاطمة بنت الأحجم، وأما خالدة بنت هاشم بن عبد مناف ترثي زوجها الجراح ثم ترثي أخوتها، لقد كانت فجيعتها كبيرة. ورجال كثر من حُماتها فقدتهم نقول في رثاء زوجها-

يَا عَيْن بَكَى عِنْدَ كُلِّ صَبَاحٍ
قَدْ كُنْتُ لِي جَبَلًا الْوُدُّ يَظْلُهُ
جودى بأربعة على الجراح
فَتَرَكْتَنِي أَضْحَى بِأَجْرَدَ ضَاحٍ
قَدْ كُنْتُ ذَاتَ حَمِيٍّ ، مَا عَشِيتُ لِي
أُمِّي الْبَرَّازُ ، وَكُنْتُ أَنْتَ جَنَاحِي
فَالْيَوْمَ أَخْضَعَةَ لِلذَّلِيلِ وَ أَتَقَى
منه ، وَأَدْفَعُ ظَالِمِي بِالرَّاحِ

وَمِنْ رِثَائِهَا لِأَخَوَتِهَا:

إِخْوَتِي ، لَا تَبْعِدُوا أَبَدًا
لَوْ تَمَلَّيْتُمْ عَشِيرَتَهُمْ
وَبَلَى ، وَاللَّهِ قَدْ بَعِدُوا
لَا قِتْنَاءَ الْعِزِّ أَوْ وَلَدُوا
هَآنَ مِنْ بَعْضِ الرِّزْيَةِ أَوْ
هَآنَ مِنْ بَعْضِ الذِّى أَجِدُ
كُلَّ مَاحِيٍّ ، وَإِنْ أَمُرُوا
وَارِدُ الْخَوْضِ الَّذِي وَرَّوُوا²⁰

ماثر مكة وفضائل قريش كانت الموضوع المتهم للشعراء قبل الاسلام والميثة الاولى لمكة هي انها موقع ديني مرتبط بادارة القوة الالهية وفيه لمسات قدسية، فالكعبة اقيمت بايدي بشرية بحسب إحدى الصبغ التاريخية غير الأسطورة، اما الاسطورة التي تحت حولها من صنع الملائكة هندستها وجمعتها وحملتها الى الارض، فرضى عنهم وقال لهم: "ابنوا لي في الأرض بيتاً بعوذ به من سخطت عليه من بنى آدم، ويطوف حوله، فأرضي عنهم، فبنوا له هذا البيت." ومن شرف مكة انها كانت لقاحاً، لاتدين لدين الملوك ولو يؤد اهلها اناوة ولا ملكها ملك قط من سائر البلدان، تحج اليها ملوك حمير وغسان وكنده ولخم----- وكان امله آمتين يَغْرُؤَنَ الناسَ وَلَا يُغْرَؤَنَ----- وكم تُسَبِّ قريشة قط فتوطا قهراً----- ولا يُجَالُ عليها بالسهام، وقد ذكر الشعراء عزمهم وفضلهم فغال بعضهم:

أَبَوَادِينَ الْمُلُوكَ فَهُمْ لِقَاحٍ إِذَا مِجْجُوا إِلَى حَرْبٍ أَجَابُوا

وقال الزبرقان بن بدر لمرجل من بنى عوف كان قد هجا ابا جهل ونال من قريش:

¹⁹ فاروق أسليم بن احمد، ديوان ضرار بن الخطاب الفهري (بيروت: دار صادر، 1999ء)، 100-

²⁰ شرح الحماسة للاعلم الشمنترى (بيروت: دار صادر، 1997ء)، 481-

أتدري من هجوت ابا حبيب
أزاد الركب تذكر أم هشاما
سَلِيلَ خُضَارِمٍ سَكَنُوا الْبِطَاحاً
وبيت الله والبلدا اللقاها²¹

أما اهل مكة فكانوا حلفاء متالفين، متمسكين بكثير من شريعة ابراهيم عليه الاسلام ومنهم كان
الْحُمْس والتحمس هو التشدد في الدين---- وهم الذين منهم هاشم بن عبد مناف الذي هشم الله يد
لقوميه فليل فيه:

عمرؤا العلى هَشَمَ الشَّدِيدَ لقومه
سُنْتَ اليه الرملتان كلاهما
ورجال مكة مُسْنِتُونَ عِجَافٍ
سفر الشتاء وَرَحْلَةُ الْأَصْبَافِ²²

وكان كشف بئر زمزم حدثاً انقلابياً وقدر أينا كيف ارتبط بالأسطورة والقوى العصبية وزاد البعض
حتى جعل البشر هذه مقدسة عنه الفرس وقد كانت اسلافهم تقصد البيت الحرام و تطوف به
تعظيمًا لجدهما ابراهيم وتمسكا بهدية وحفظاً لانسابها--- وكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزمزم
على هذه البئر في ذلك يقوم:

زَمَزَمَتِ الْفُرسُ عَلَى زَمَزِمٍ
وذاك في سالفها القدم²³

بل ان بعض زاد في قدسيتهما وقد مها فجعلها تفجير ابراهيم لها هو عورة إلى ظهور في حين ان ظهورها
الاول حقه جبريل لأدم فيقول خويلد بن اسد-

أقول ، وما قولي عليكم بسبة
حقيرة ابراهيم يوم ابن هاجر
اليك ابن سلمي ، أنت حَافِرُ زَمَزِمٍ
وَرَكَّضَتُهُ جَبْرِيلُ عَلَى مَهْدِ آدَمَ

هذا، وتديجا جرس القرشيون مكانة لهم أرفع من مكانة سائر العرب أياً علت منزلة بعضهم مكانة
استعاروها من قرب الآلهة وتببيتهم ارادتها وَلَرَسُوا في الوقت نفسه منطقة الحرم، محرمة على كل تصرف شاذٍ
غير تقى صالح، فحق لحرب بن امية ان يدعو الحضرمي أباسطر، إلى عدم النزول خارج الحرم:

أبامطر ، هلم إلى (صالح)
وتنزل بلدة عزت قديما
فيكفيك الندامى من قريش
وتأمن أن يزورك ربُّ جيش
أبامطر هديت بخير عيش²⁴

نذر عبدالمطلب على هذا الأساس في رأينا، كان نذر عبدالمطلب يقول اليعقوبي----- اللهم كنت قد
نذرت لك نحرًا احدهم و أتى أقرع بينهم، فأصيب بذلك من شئت فافزع حضارت اتوعه على عبد الله

²¹ الحمدي، معجم البلدان، 6:463-

²² ابن هشام، السيرة النبوية: 1:144-

²³ الحمدي، معجم البلدان، 6:646-

²⁴ الحمدي، معجم البلدان، 3:153-

وكان احبّ ولده إليه- فانطلق عبدالمطلب بعبد الله ليذبحه وأخذ الشجرة--- ونعودمنا إلى القول بأن عبدالمطلب لم يكن مجرد احل من قريش بل هو سيدهما و وارث ملكها و مجدهما، والالتزام كان محتوما على عبدالمطلب مَهْمَا غلا الثمن لكن قريشا اقترحت الغداء فكانت هذه الفتوى نوعا من خرج فتحت أفقا جديداً قام عبدالمطلب يقول:

عاهدت ابي ، وأنا مُوف عهده
أخاف ربي ، ان تركتُ وعده
والله ، لا يحمِدُ شئ حَمَدَه

عند ا ضرب بالقداح عليها فخرجت على الابل فكبر الناس وقالوا قد رضى ربك فقال:

لهم ربّ البلد الحرم
الطيب المبارك العظيم
أنت الذى أعنتنى فى زمزم

نحرت الابل ونودى الناس ليأخذوا لحمها وصارت الديّة مئة من الابل على ماسن عبدالمطلب-

تُبُع والكعبة

وبالنسبة الى التُّبُع فإننا نهتم به لارتباطه بتاريخ الكعبة فقد قصّدها متذراً بالثبور أثّرت عنده اطماع فى كنوزها المدفونة فجاءها يبغي تدميرها ونهبها ثم تقضى الرواية بأن يتصل به رجلاً دين يهوديان يغيران موقفه، فينقلب الى معجب بها وباهلها فسارمن المدينة الى مكة "طاف بالبيت ونحر عنده، وحلق رأسه وأقام بمكة سته ايام ينحربها ويظهم أهلها ويسقيهم العسل-²⁵ ثم كسا البيت الخصف وغيره إلى المفاخر وغيرها الى الملاء والوسائل وكان أوّل من كسا البيت--- وجعل له باباً ومفتاحاً-²⁶ وتبع هذا، الملك الجنوبي المفرق فى القدم، له شعرٍ فصيح بلهفته قريش وبلغة سلسلة، قريبة المتناول، وفى انسجام مع عروض الشعر الشمالى يقبله ابن خلدون و يذكره فى تاريخه و فيه كذلك ذكر الكعبة وماعاملها به من اجلال واحترام وما كساها به من فاخر القماش اليماني، يقول تبع ابو كرب -

ثم سُرنابها سَيراً بعيداً	اذ حسينا جياندا من دماء
وابنٌ إقليد جاءنا مصفوداً	والستبحنا بالخيّل خيل اقياذ
مهٌ مُلاءٌ مُنضّداً وَبُرُوداً	وَكَسَوْنَا اليَت الَّذي حَرَمَ الْآ
وجعلنا لِبابه إقليداً	وَأَقَمْنَا بهِ الشَّهْرَ سَمِشْراً
قد رَفَعْنَا بوأنا المعتودا	وَحَرَجْنَا مِنْهُ نَوْمٌ سُهَيْلاً

²⁵ تاريخ اليعقوبى: (دار صادر بيروت لبنان،) 1 : 25

²⁶ ابن حشام، السيرة النبوية: 1 : 125

جُرهم وملة

تقول الاسطورة ان جُرهم هو ابن لقحطان وُلِي على مكه بعد أن قام أخوه بطرد عاد منها، وولى بعده ابناءه لعشرة اجيال وإلى جُرهم بعث اسماعيل بن ابراهيم الخليل وبينهم عاش، ومنهم تزوج وفيها كانت سدانة الكعبة بيد اسماعيل والملك لجُرهم قيل أن قيداد بن اسماعيل جمع المجدين عقدله أخواله الملك على الفجاز وورث من ابيه سدانة الكعبة.²⁷ ويقال ان عمرو بن الحرث بن فُضال التاسع من ملعك جُرهم شاعراً وينقل الينا شعره بعربية قريش الضحى يفخر بحكمهم الحجاز ومصاهرة اسماعيل لهم يقول:

وكنّا ولادة البيت من بعد نابٍ
وصاهرنا من اكرم الناس والداً
نطوف بذاك البيت والا مرظاهم
فأبناءؤه منّا ونحن الاصاهر²⁸

فإن الافت في هذا لشعر هو الشاغل الاكبر لكل من عاش في مكة وتولى أمورهما: الفخر، بموضو عين كل منهما يلاعن قدسية عرفها المومنون في مكّه: قدسية المكان وقدسية النسب.

الاحباش ومكّه

الاحباش و مكّه ايضاً الموضوع الشعري عندا شعراء المكين كانت قريش قد اقامت علاقات حسن جوار مع جميع القوى المحيطة بالجزيرة العربية، مع الروم الفرس ومع الحبشة، فقريش قوم اصحاب تجارة والعلاقات الجيدة أساس نجاح العمليات التجارية، لكن موقع مكّه، في العالم القديم كمركز استقطاب تجارى و ديني جعلها قبلة انظار حديثي النعمة، من الملوك يرون في السيطرة عليها سيطرة على تلك الامة الاعراب هكذا ابني ابرهة أشرم، ملك الحبش، كعبة نجران ليصرف الناس عن الكعبة ولما لم ينصرفوا، ولم تخط كعبة بالقدسية التي تتمتع بها كعبة مكة صمم على هدمها وتخريبها فكانت حملة الفيل المعروفة وما أصاب جيشه، في حملته من مرض لعلّه الطاعون وطبيعي ان يكون محور القول عند الشعراء تاريخ مكّه لجهة كونها قرينة من الله عزيزه عنده و طبيعي كذلك ان يصف القريشون انفسهم، إن كانوا هم المتحدثين- بأنهم الجماعة التي اختارها الله، ترعى بلدة الله ويحميها الله- تقيم فيها الفضائل التي يدعوا إليها الرب إنهم يصلون الأرحام ويحفظون العهود والذمم هذا مانجده في مقطوعة عبدالمطلب ابن هاشم التالية:

ايها الداعي ، لقد اسمعتني
هل يدُ الله امرؤاً له
ثم نادٍ، عن نداكم ، في صمم
سُنّة في القوم ، ليست في الامم
قلت ، والاشرم تردى خيله
إنّ لليئت لربّاً مانعاً
إنّ ذا الدشرم غرّب الحرم
من يردّه بأشام يصطلم²⁹

²⁷ ابي الحسن، الكامل في التاريخ: 1: 224

²⁸ الحمدي، معجم البلدان، 4: 466

من وجوه الأسطورة ترك قريش و سائر العرب قتال ابرمه إحالة الدفاع عن الكعبة إلى رب الكعبة. ان عبدالمطلب اخذت له ابل من قبل جيش الاحباش، قطب لقاء ابرمه وساله ردّ إبله إليه ولم يرجه ترك الهجوم على الكعبة وحين عجب ابرمه من سلوك سيد قريش كان ردّه المشهور:

”إني أنا ربّ الابل وللييت ربا سيمَنّعه.“

و فيما أخذ على بنى اسرائيل قولهم لموسى النبي: ” اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.“ فإن ردّ عبدالمطلب استقطب إعجاب الناس عبر التاريخ وهذا مارسخ الايمان بجلال الكعبة وجلال عبدالمطلب فعبد المطلب يترك مكة ويدعو قريشا إلى تركها والاعتصام بالجمال لكنه يمنعها ودبعة بين رتها ويحثه، على تمايتها:

لَا هُمْ إِنْ الْعَبْدَ يَمَّ نَعِ رَجَلَهُ ، فَأَمْنَعِ خَلَائِكَ

لَا يَغْلِبُنْ صَلِيلَتُهُمْ وَمَخَالَهُمْ غَدَوًا مَخَالِكَ

إِنْ كُنْتَ تَارَكْنَهُمْ وَقَلْبُ يَلْتُنَا فَا مَرَّ مَا بِدَالِكَ

وما يقوله عبدالمطلب هو لسان حال سائر قريش، فابن اخيه عكرمة بن عامر يتوجه الى رب الكعبة بالدعاء ليهزم القائد الاسود. ويقول عكرمه في سجع يشبه الرجز -

لَاهُمْ أَخْزِرِ الْأَسْوَدِينَ مَقْصُودُ الْآخِذِ الْجَهْمَةَ فِيهَا التَّقْلِيدُ

بَيْنَ حَرَاءٍ وَثَبِيرٍ فَالْبِيدُ يَحْبِسُهَا وَهِيَ أَوَّلَاتُ التَّطْرِيدِ

فَضَمُّهَا إِلَى طَمَاظِمِ سُودُ أَخْفَزَهُ يَارِبِّ وَأَنْتَ مَحْمُودُ³⁰

ويكرس طالب بن ابي طالب التدخل الالهى يمنّ به على قومه إذ لولاه لما قامت لهم قائمة ولا بقى لهم مال پرعى:

أَلَمْ تَعْلَمُوا مَا كَانَ فِي حَرْبٍ دَاحِشٍ وَحُبُّشٍ إِلَى يَكْسُومٍ إِذْ مَلَأُوا الشَّعْبَا

فَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ لَا شَيْءٌ غَيْرُهُ لِاصْبَحْتَهُمْ لَا تَمْتَعُونَ لَكُمْ سِرِّيَا³¹

خلاصة البحث

وتتجلى من هذا البحث أن شعراء مكة الكبار نظموا قصائدهم في أحداث جسام مرّت بها مكة أو قريش وما حُفظ من هذه القصائد هو ما قيل في معارضة الدعوة الاسلامية في يد ظهورها أوفى امتداحها والدفاع عنها قبلا وبعداً هذا ما حفظه المسلمون واراد الشعراء انفسهم أن يذكروا به. بعد الفحص يرزنا مظاهر حياة الجاهلية من كل جوانبها و كل الاخبار والروايات التي تظهر الفكر العربى حينذاك متطويا على خيال مبدع و تطور على الاصعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

²⁹ أبي العباس احمد بن على القلفشندى، صبح الأعشى (مصر: المؤسسة المصرية العامة)، 4: 261.

³⁰ أبي العباس احمد، صبح الأعشى، 4: 262.

³¹ ابن هشام، السيرة النبوية: 1: 511.